

المحاشرة الثالثة

التفسير العلمي بين الرفض والقبول

أبرز المعارضين للتفسير العلمي وأدلة التهم

انتقد بعض العلماء التفسير العلمي واختاروا المنع منه لما يؤدي إليه من مفاسد في تفسير كلام الله تعالى، والذي يعنينا في هذا المقام ذكر أبرزهم دون مناقشة حججهم وبيان مدى قوتها أو ضعفها فمن هؤلاء:

١ - الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠هـ): وهو أشهر المعارضين للتفسير العلمي على الإطلاق، حيث قرر في كتابه (الموافقات) أن علم التفسير مطلوب فيها يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلوماً فالزيادة على ذلك تكليف، ثم مثل على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْهَمُوا كَيْفَ يَنْبَغِي لَهَا وَرَبِّهَا وَمَا هَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق:٦] ، فمن فسرها بعلم الهيئة فقد أتى عملاً غير سائغ، لأن ذلك مما لا تعرفه العرب وقت نزول القرآن، والقرآن إنما أنزل على معهودهم.

ثم ذكر تكليف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ بعلوهم بأيات من القرآن، وأحاديث عن النبي ﷺ، مثل احتجاج أهل العدد بقوله: ﴿فَسَأَلَ الْعَادِينَ﴾ [المؤمنون: ١٣]. والهندسة بقوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَا أَنْتَ أَوْدِيَةً بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] ، وأهل التعديل النجومي بقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] .

٢ - محمود شلتوت شيخ الأزهر (ت ١٩٦٤م): وقد طالب في مقدمة

المحاضرة الثالثة

تفسيره بتنزيه القرآن عن استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه احتفاظاً بقدسيته وجلاله.

ورأى أن هذا اللون من التفسير أفسد على أصحابه أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله.

وأشار إلى خطأ هذا التوجه لأن القرآن ليس كتاباً لنظريات العلوم ودقائق الفنون، وتحمل هذا التوجه أصحابه على التكليف المذموم، وتعريفه القرآن للدوران مع مسائل العلوم، وتحميله تبعات الخطأ في المسائل العلمية .

٣- أمين الخولي (ت ١٩٦٥م): حيث ذكر أدلة الشاطبي في الاعتراض على التفسير العلمي ثم أضاف إليها أدلة تؤيد المع منه من نواحٍ ثلاثة:

أ- الناحية اللغوية: حيث تم تفسير ألفاظ القرآن من خلال التفسير العلمي بمعنى وإطلاقات لم تُعرف لها أثناء نزول القرآن.

ب- الناحية الأدبية والبلاغية: فكيف يخاطب الناس وقت نزول القرآن ويُتحدون بمعانٍ لم تعرفها الدنيا إلا بعد نزول القرآن بقرون.

ج- الناحية الدينية أو الاعتقادية: فكيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة والكيمياء من القرآن، وهي جوامع لا تنضبط بل تتغير سريراً.

المحاضرة الثالثة

هذه العلوم الدخيلة. وقد ألف في ذلك كتاباً سماه: (الفرقان في بيان إعجاز القرآن) زادت صفحاته عن ٤٧٠ صفحة، وقال في مقدمته: «والمراد من هذا الكتاب النظر في هذا الطوفان الغامر المسمى: إعجاز القرآن العلمي، بزعم تصديق كلام الله وتصحیحه وتأییده هذه النظريات التي يُطلق عليها اسم العلم، التي وفدت من ملاحدة أصلوا علومهم ونظرياتهم على جحود الخالق سبحانه» .

أبرز ما استدل به المعارضون للتفسير العلمي:

- يمکن تلخيص أدلة للمعارضين للتفسير العلمي على النحو التالي:
- ١ - التفسير العلمي تكلف، لأن المراد من خطاب القرآن معلوم لدى السابقين، وما زاد على ذلك فهو تكلف منهی عنه.
 - ٢ - التفسير العلمي يجعل القرآن كتاب تفصیل لدقائق العلوم، وغرض القرآن أسمى من ذلك، فهو كتاب هداية وإرشاد.
 - ٣ - التفسير العلمي مدعوة للزلل لدى أكثر من خاضوا فيه بتحمیل النصوص ما لا تتحمل لموافقة الكشوفات العلمية الحادثة.
 - ٤ - التفسير العلمي بدعة جديدة لم تؤثر عن الصحابة والسلف وأهل التفسير في القرون المفضلة.
 - ٥ - التفسير العلمي يعرض القرآن للتکذیب حين تنقض النظريات

المحاضرة الثالثة

والفرضيات العلمية التي يربطها أهل التفسير العلمي بالأيات القرآنية.

٦ - التفسير العلمي يتجاوز بالألفاظ القرآنية حدود الاستعمال في معهود العرب وقت نزول الآيات إلى معانٍ لم تكن معروفة لهم ذلك الوقت.

٧ - التفسير العلمي يتنافى مع كون القرآن خطاباً للناس كافة العوام والعلماء، فالعامي لا يفقه القضايا العلمية التي يتعرض لها أهل التفسير العلمي.

٨ - التفسير العلمي مفاسده أكبر من مصالحه، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

ملاحظات عامة على أقوال المعارضين للتفسير العلمي:

وبعد استعراض أقوال المعارضين للتفسير العلمي يجدر التأكيد على أمور منها:

أولاً: أن هؤلاء المعارضين قد قدموا خدمة كبرى للتفسير العلمي وأسهموا في تحسن مسيرة، نظراً الشدة نقدهم وقوة معارضتهم حيث سعى أهل التفسير العلمي إلى تلافي الأخطاء التي تتقد عليهم، والتدقيق فيها يكتبوه، بدليل أن الكثير من المؤلفات المعاصرة في التفسير العلمي تخلو من كثير من الملاحظات التي أبدتها المعارضون.

ثانياً: أن تفسير الجواهر لطنطاوي جوهري كان سبباً واضحاً للموقف الرافض للتفسير العلمي عند الكثير من المعارضين، بدليل كثرة ذكرهم له وتغيلهم بعض ما جاء فيه من شطحات.

المحاضرة الثالثة

ثالثاً: تفاوت حجج المعارضين من حيث القوة والضعف، وليس المقصود هنا هو الرد التفصيلي على الضعف منها، لكن المقصود هو إثبات المعارضة لهذا اللون من التفسير.

رابعاً: نقل اللاحق من المعارضين عن السابق، وكثرة ترداد الحجج والأدلة بأساليب مختلفة مع حدة العبارة أحياناً، مما أطّال الجدل وأوحى لبعض الباحثين بشدة المخصومة، وصعوبة الفصل فيها بين المؤيدین والمعارضین، مع أن الواقع غير ذلك.

خامساً: أن هناك مجموعة أخرى من المعارضين للتفسير العلمي مثل الأستاذ عباس العقاد - المفكر والكاتب المشهور - والأستاذ إسماعيل مظہر - صاحب مجلة المصور ومحررها - وقد عذّها بعض الباحثين ضمن المعارضين، لكنني لم أذكرهما هنا لعدم تخصصهما في هذا المجال؛ لأن المقصود في مثل هذه الأبحاث التركيز على أقوال أهل التخصص المرتبطين بالبحث العلمي.

سادساً: تم تصنيف بعض الأعلام من قبل بعض الباحثين المعاصرین على أنهم معارضون للتفسير العلمي دون تحیص لوقفهم الحقيقي، تأيیداً أو معارضة للتفسير العلمي، ثم تابع الباحثون على نقل هذا التصنيف حتى أصبح شبه مسلماً به عند كثير من المتخصصين، ولذا فسوف أحاول في البحث التالي تحقيق موقف بعض من صنّفوا معارضين للتفسير العلمي.

المحاضرة الثالثة

أبرز المؤيدين للتفسير العلمي وأدلة لهم

يمكن الجزم بأن المؤيدين للتفسير العلمي أكثر عدداً من المعارضين كما أنهم يزدادون على مر السنين في مقابل انحسار أعداد المعارضين.

ولشن كنا قد ذكرنا النصوص الدالة على معارضة المعارضين في البحث الأول من هذا الفصل، فإننا لسنا في حاجة لنقل نصوص تدل على التأييد عند المؤيدين لأن مجرد تأليفهم الكتب في مجال التفسير العلمي يعد دليلاً على تأييدهم لهذا النوع من التفسير.

ونجدر الإشارة في هذا السياق إلى أمرين:

الأول: تفاوت المؤيدين في درجة التأييد للتفسير العلمي فإن منهم من يدعوا إلى وضع جملة من الضوابط والشروط لتأييده وقبوله، ومنهم من يؤيد التفسير العلمي ويستخدمه دون قيد.

الثاني: اختلاف المؤيدين في تخصصهم العلمي، فمنهم العالم الشرعي المتخصص، ومنهم الطبيب والفلكي والمهندس والأديب والواعظ، وكل هؤلاء يشتغلون في دعوتهم إلى التفسير العلمي وتأييدهم له.

أبرز المؤيدين للتفسير العلمي :

- ١ - أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥ھ) في كتابه: (معجزة القرآن).
- ٢ - الفخر الرازي (ت ٦٠٦ھ) في تفسيره: (مفاتيح الغيب).

المحاضرة الثالثة

- ٣ - ابن أبي الفضل المرسي (ت ٦٥٥هـ) في نقله عنه جلال الدين السيوطي في: (الإتقان).
- ٤ - النيسابوري (ت ٧٢٨هـ) في تفسيره: (غرائب القرآن ورغائب القرآن).
- ٥ - البيضاوي (ت ٧٩١هـ) في تفسيره: (أنوار التنزيل).
- ٦ - بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في كتابه: (البرهان في علوم القرآن).
- ٧ - جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتابه: (الإتقان في علوم القرآن).
- ٨ - الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) في تفسيره: (روح المعاني).
- ٩ - محمد عبده (ت ١٩٠٥م) في تفسير (جزء عم) وما نقله عنه تلميذه في (المنار).
- ١٠ - محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير (المنار).
- ١١ - مصطفى صادق الرافعي (ت ١٩٣٨) في كتابه: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية).
- ١٢ - محمد عبد الله دراز (ت ١٩٥٨) في كتابيه: (النبا العظيم)، و(مدخل إلى القرآن الكريم).
- ١٣ - محمد أحمد الغمراوي في كتابه (الإسلام في عصر العلم).

المحاضرة الثالثة

أبرز أدلة المؤيدين للتفسير العلمي :

- ١ - عموم بعض آيات القرآن الدالة على شموله:
كقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعماں: ٣٨].
وقوله تعالى: ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِيَنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].
- ٢ - القرآن يدعو إلى التدبر والنظر في الكون والخلوقات:

المحاضرة الثالثة

أبرز أدلة المؤيدين للتفسير العلمي:

١ - عموم بعض آيات القرآن الدالة على شموله:

ك قوله تعالى: ﴿تَنَافَرْتُمَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِئْنَاتِنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٨٩].

٢ - القرآن يدعو إلى التدبر والنظر في الكون والخلوقات:

كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَثَتْنَا وَرَبَّتْنَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [اق: ٦].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتِ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتِ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتِ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتِ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

وقوله تعالى: ﴿سَرِّيهِمْ مَا يَنْتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

٣ - كثرة استدلال القرآن على علم الله وحكمته وقدرته بظواهر كونية:

ولو لم يكن البحث في هذه الظواهر مشروعاً لما كررها القرآن ومن هذه الظواهر تعاقب الليل والنهر وأحوال السماء والشمس والقمر والنجوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَلَيْلَ سَرِمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِنَّ اللَّهَ غَيْرُ اللَّهِ بِأَيْمَانِكُمْ بِضِيَاءِ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَلِّفُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَرْوِلَا وَلَمَنْ زَالَ إِنْ أَسْكَنَاهُمْ أَحَدًا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطمة: ٤١].

المحاضرة الثالثة

- ٤- الأصل هو جواز التفسير بالرأي، والتفسير العلمي إنما هو نوع من أنواع التفسير بالرأي يجتهد فيه المفسر في بيان معنى الآية، ومن قال بالمنع منه هو المطالب بالدليل على تحريمه أمّا من يستصحب أصل الجواز فلا يطالب بدليل على جواز عمله.
- ٥- أن كل ما يدخل تحت نص قرآنی عام فإنه يعُدُّ ما نص عليه القرآن ومن ذلك قضايا التفسير العلمي.
- ٦- قد يكون العلم الحديث ضروريًا للفهم الدقيق لمعانٍ بعض الآيات، فربما صار التفسير العلمي من قواعد الترجيح في التفسير إذا كان للأية أكثر من معنى.
- ٧- الفوائد الكبيرة المترتبة على التفسير العلمي ومنها:
- أ- دعوة غير المسلمين إلى الإسلام أو على الأقل زيادة إقامة الحجة عليهم.
 - ب- ملاً النفوس تعظيمًا للخالق عزٌّ وجلٌّ يادراك عجائب خلقه وتقديره.

المحاضرة الثالثة

جـ- زيادة إيمان المؤمنين ويقينهم بصدق ما هم عليه من الحق وقد قال إبراهيم لربه: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُعِيَ الْمَوْلَى﴾ قَالَ أَوْلَئِنَّ تُؤْمِنُنَّ قَالَ بَلْ وَلَكِنَ لِيَطَمِّنَنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

-٨ التفسير العلمي سبيل مهم للوصول إلى الإعجاز العلمي، والإعجاز العلمي يعجز الملحدون أن يجدوا فيه موضعًا للتشكيك، فالحقائق العلمية المذكورة في القرآن يتفق أهل العقول على كونها دليلاً على أن من أنزل القرآن هو خالق هذه الحقيقة العلمية.

* * *